القنبلة الذرية فى تجربة نفسية

بدئ هذا الشهر بتجربة القنبلة الذرية فى الأساطيل البحرية ، ولا تزال الأخبار تتوالى بآراء الخبراء فى نتائج هذه التجربة ، ولا تزال الصحف تتلقى الرسائل عنها ممن شهدوا التجربة أو سمعوا بوصفها أو بحثوا فى موضوعاتها المختلفة سواء منها موضوعات العلم وموضوعات الحرب وموضوعات السياسة .

والأقوال متفقة على شىء واحد فى هذه المسألة التى يقل فيها الاتفاق : ذلك الشىء الواحد هو أن التجربة كانت « أقل هولاً » مما توقعوه ، إما لاختلاف فى حجم القنبلة ، أو لاختلاف فى صناعتها ، أو لاختلاف فى تصويبها ، أو لاختلاف فى موقعها ، أو لجميع هذه الأسباب مقترنات .

وكل ذلك لا يعنينا فى حديثنا ، لأننا نقصره على تجربة القنبلة من الوجهة النفسية كما أسفرت عنها الوقائع إلى الآن . ولا نستغرب من هذه الوجهة - أى من الوجهة النفسية - أن تكون أخطار القنبلة فى البحر أقل هولاً مما انتظر الكثيرون . فهكذا فى الواقع ينبغى أن تكون . لأن الهول الذى وقع فى نفوس

الناس من استخدام القنبلة فى حرب اليابان كان هول المفاجأة الأولى ، وليس الهول المفاجئ كالهول المتكرر أو الهول الذى طال انتظاره والحديث فيه والمبالغة فى تخييله وتصويره . ويضاف إلى ذلك أن القنبلة فى الحرب تدمر المدن وتقتل عشرات الألوف ، ولكنها فى المناورات لا تقتل أحدًا من الناس ، ولا يقيس الخيال البشرى هولاً من الأهوال كما يقيسه بإزهاق الأرواح وتخريب الديار ..

فأيًّا كان الهول فى التجربة فهو أقل من الهول المنتظر ، بعد جماح الخيال وذهاب المفاجأة الأولى .

وغدًا نعلم : لماذا قصرت التجربة الواقعة عن إرضاء خيال المتخيلين وتقدير المقدرين . فربما كان ذلك لاختلاف حجم القنبلة أو صناعتها أو تصويبها أو موقعها ، وربما كان لاختلاف تقدير الخيال عن حقائق الواقع المشهود . فلننتظر ما يقول الغد فى كل هذا . فإنه لا شك قائل فيه قولاً مسموعًا يفصل بين الحقيقة والخيال ، ولنقنع الآن بالسؤال عن التجربة النفسية : علام أسفرت بعد ظهور هذا الاختراع ؟ وعلام دلت هذه الشهور التى مضت منذ تجربتها فى حرب اليابان ، قبل عام أو نحو عام ، وما الذى نفهمه حتى الآن من نتائج التجربة النفسية ؟ وهى ولا شك أحق بالسؤال ، وأحق بأن يسمع فيها جواب .

هل نتفاءل أو نتشاءم ؟ وهل نقول إن القنبلة الذرية بداية

النهاية ؟ أو نقول إن النهاية لا تزال حيث كانت ، وإن عوامل العمار لا تزال أرجح من عوامل الدمار ؟

لقد ألقيت بسهمى مع المتفائلين من اللحظة الأولى . لأن التشاؤم على الأقل لا يضيع عليه الوقت متى حان حينه ، ولن يفوتنا بفواته شيء نأسف عليه . فهل تعزز أمل المتفائلين أو تعزز خوف المتشائمين ؟ وهل تجربة العام الفارط – من الوجهة النفسية – تجربة تدعو إلى الطمأنينة ؟ أو تجربة تدعو إلى القلق والقنوط ؟

إننا لا نريد أن نرتل أناشيد الثناء على مكارم الجنس البشرى ، لأنه هو وملائكة الرحمة سواء .

ولا نريد أن نستعيد قصائد اللعن والهجاء التى قيلت فى أبناء هذه الدنيا ، لأنهم كالشياطين أو شر من الشياطين .

فهذا وذاك لا فائدة منهما فيما نحن فيه .

وأفيد من الأناشيد والأهاجى واقعة واحدة ، أو مقارنة صحيحة ، وهى المقارنة التى نقيس عليها حاضرنا وماضينا فى هذا الموضوع نفسه ، أى موضوع القنبلة الذرية .. فماذا كان يصنع تيمور لنك مثلاً بمجموعة من هذه القنابل لو وقع على أسرارها ؟ بل ماذا كان يصنع بها بطرس الأكبر أو نابليون الكبير ؟

إن الناس لا يجمعون على قول واحد فى مسألة من المسائل

العامة ، ولكننا لا نطمع فى إجماع أعظم من إجماعهم على جواب ذلك السؤال .

فمما لا شك فيه ، عند الأكثرين ، أن القنبلة الذرية لو اخترعت قبل بضعة قرون – لما بقيت فى يد قائد قوى شهرًا واحدًا بغير استخدام ، وإنها كانت تستخدم فى مطمع وغير مطمع ، وتهدد الأعداء وغير الأعداء ، وتخلق الحروب التى لم تكن تخطر على بال .

ومما لا شك فيه ، عند الأكثرين ، أن تصرف « الجنس البشرى » بالقنبلة الذرية قد اختلف فى عصرنا هذا عما كان متوقعًا منها فى عصور التاريخ القريب ، وأقربها عصر نابليون .

فاليوم تملك القنبلة الذرية دولة قوية أو أكثر من دولة قوية ، والذين يملكونها لهم مطامع فى السياسة والتجارة ، ولهم خصوم ومنافسون ، ولهم مشكلات دولية قائمة لم تنقطع منذ شهور ، وفى بلادهم قادة من رجال القوة والسيف وطلاب المجد والظهور ، وفى بلادهم كذلك قادة من رجال المال والأعمال وطلاب السيطرة والجاه ، وفى بلادهم طبقة من الساسة الذين يستعجلون الأمور ويضيقون ذرعًا بالأزمات ، وأمامهم فى داخل بلادهم كما فى خارجها مشكلات عنيدة يتبيغ لها الدم وتختنق بها الأكظام . فلو كانت القنبلة الذرية فى أيديهم ، وكانوا هم فى موضع تيمور أو نابليون ، لما انقطع استخدامها ولا حال حائل دون تحكيمها

فى جميع هذه المشكلات والأزمات ، ولم ينقض زمن كالذى انقضى بين أغسطس من السنة الماضية وبين هذا الشهر – دون أن تجرب مرة بعد مرة فى الملآن كما يقولون ، ولا يكتفى بتجربتها فى عرض البحار .

وأيا كان المانع من استخدامها اليوم فهو دليل على تطور فى الجنس البشرى غير مذموم .

فإذا قدرنا أن القادة العسكريين والسياسيين هم الذين يمتنعون عن استخدامها مختارين فمعنى ذلك أن قادة اليوم خير من القادة قبل بضعة أجيال .

وإذا قدرنا أن القادة يريدون استخدامها ، ولكنهم يخافون شعوبهم – فمعنى ذلك أن الشعوب اليوم أقدر على منع الضرر وتحقيق المصلحة ، وأن عناصر المحبة أعم فيهم من عناصر البغضاء .

وإذا قدرنا أن القادة وشعوبهم على السواء لا يتورعون عن تسخير هذه الآفة الجهنمية ، وأن الأمم الإنسانية هى التى تردعهم وتغل أيديهم فالأمم الإنسانية إذن وازع فعال يحسب له حساب ، ولم يكن لها قبل اليوم حساب فى أعمال الفاتحين والطغاة .

فهذه تجربة نفسية تسجل فى عدة شهور ، وتسجيلها أقرب إلى جانب الطمأنينة منه إلى جانب التشاؤم والارتياع .

تجربة أخرى من التجارب النفسية قد أسفرت عنها القنبلة الذرية منذ عام أو نحو عام : وهى أننا نغتر كثيرا بأقوال الثقات والخبراء ، إذا خيل إلينا أنها من العلم المحض والبحث الصميم .

فالواقع أن الثقات والخبراء يفكرون برغباتهم وأهوائهم كسائر الناس ، وأنهم يقررون الرأى لأنهم يرغبون فيه ، لا لأنه هو مقطع الحق والصواب فى كثير من الأحيان .

وليس هذا بالكشف الجديد .. لأنه خصلة من خصال الناس المعروفة منذ عرف الناس . ولكن التجارب التى عولجت بها القنبلة الذرية قد عرضتها للنظر فى أوسع نطاق .

فالخبراء العسكريون – بل كبار الخبراء العسكريين – منقسمون اليوم إلى معسكرين كبيرين فى جميع أنحاء المعمور : قسم يقول إن القنبلة الذرية قد أبطلت الأساطيل البحرية ، وأثبتت أن سفن القتال سلاح مفلول لا يساوى الجهود والأموال التى تتفق عليه .

وقسم آخر يقول : إن هذه القنبلة الذرية بعينها قد ضاعفت الحاجة إلى أساطيل البحر . لأنها تحوجنا إلى مدرعات أضخم من المدرعات المعهودة ، وطرادات أوفر عددًا وأعظم سرعة من الطرادات التى توجد الآن فى الأساطيل ، وأثبتت نقص الأساطيل الحاضرة فى أنواع من سفن لا غنى عن تكبيرها وتكثيرها ، وهى الكشافات وحاملات الطائرات والمدافع المضادة

للطائرات ، فلم يثبت لزوم الأساطيل البحرية قط كما ثبت لزومها بعد ظهور القنبلة الذرية .

وهكذا تثبت لنا هذه القنبلة الذرية النقيضين المتقابلين : تثبت لنا أن النفقة على الأساطيل البحرية عبث ضائع ، وتثبت لنا أن النفقة عليها لا تزال لازمة ، وأنها ينبغى أن تضاعف بعد الآن عدة أضعاف .

وسر هذا التناقض ليس بالسر العميق : سره أن القائلين بالرأى الأول هم خبراء الطيران ، وهم الذين يستخدمون القنبلة الذرية .. ولا ضير عليهم من زوال الأساطيل البحرية ، وأن القائلين بالرأى الثانى هم خبراء البحر وعليهم الضير كل الضير من زوال تلك الأساطيل ، أو من القول بنزول شأنها إلى المرتبة الثانية أو الثالثة فى مراتب الخطر والفخار .

وهكذا تتحكم الرغبة فى الرأى ولو كان القائلون به من أعاظم الثقات فى الموضوع ، ولا يهم أن تكون هذه الرغبة لمصلحة الراغب أو لمصلحة الدولة والفن الذى يخدمه . فإنما هى رغبة تسيطر على الرأى وتميل به إلى حيث تشاء ، على أية حال .

ونبادر فنقول : إن اصطباغ الرأى بالرغبة لا يبطله ولا يقدح فيه ، لأن الرغبة هى التى تستنهض همة الراغب إلى البحث والاستقصاء ، فيهتم ويبحث باهتمام ، ويرى من أجل ذلك ما لايراه الباحث الذى لا يكترث لبحثه ولا يخشى العاقبة

من نتيجته سواء من هذه الوجهة أو الوجهة الأخرى . ثم تصطدم الرغبات وتصطدم الآراء ، وينجلى الصدام بعد التجربة والعيان عن الحق الصراح .

ومن رحمة الله بالخلق أنهم يرغبون فيما يفكرون فيه ، وإلا لقعد أكثرهم عن الرغبة والتفكير فلا يصيبون ولا يخطئون ، أو لا يحققون بالصواب والخطأ رغبة تستحق العناء .

* * *

إن تجارب العلم والحرب والسياسة حول القنبلة الذرية تستنفد الجهود وتجمع الحشود وتنهك القادة والجنود فليس من الإسراف أن نسجل لها تجربة العام من الناحية النفسية ، وليس التفاؤل الذى سجلناه بحمد الله ، بالذى يتجاوز القدر اللازم . لأنه على قدر عام أو نحو عام .